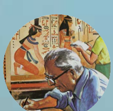
كتابك

١٥٨

فكري بطرس

الموسيقى والغناء
عند قدماء المصريين

دار المعارف



صفحة كتب سياحية و أثرية و تاريخية على الفيس بوك

هذا الكتاب

كان المصريون القدماء أول من استخدم الموسيقى والغناء فى احتفالاتهم الدينية ، وفى أفراحهم ومآتمهم . وساحات القتال . .

وهذه إضاءة على هذا الفن الذى انطلق من أرض النيل إلى العالم يحمل حضارتها . . وإبداعها الخالد .

١٠

اقرأ ١٥٨

رئيس التحرير أنيس منصور

فكرى بطرس

الموسيقى والغناء عند قدماء المصريين

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل القاهرة ج . م . ع .

المحتويات

صفحة

دور قدماء المصريين في بعث الموسيقى فى أرجاء العالم

كانت مصر – على ما جاء فى الكتب المنزلة والتاريخ – أقدم دول العالم ، التى اقتبس عنها المدنية والحضارة والعلوم والفنون . وكان من ثم قدماء المصريين أول وخير أمة بلغت من الثقافة والحضارات والرقى مبلغاً جعلها مضرب الأمثال فى العالم كله الذى كان يضرب فى ظلمات الجهل ، وتبعهم البابليون واليونان والرومان . . .

فالمصريون القدماء أول من استخدم الموسيقى والغناء فى مآثر احتفالاتهم الدينية داخل الهياكل حيث تقدم القرابين لآلهتهم وخارجها ؛ كما كانوا يستعملونها فى أفراحهم ومآتمهم وساحات القتال تحميساً للجنود . . بدليل ما يرى لآلاتها الصوتية والوترية من صور على جدران هياكلهم وعلى تماثيلهم الضخمة ، فضلاً على أن كهنتهم اتخذوا فنّ الغناء علاجاً للأمراض العقلية .

تاريخ الموسيقى والشعوب

وتاريخ الموسيقى غير محدود بعصر من العصور ، بل هو تاريخ الإنسانية نفسها وكانت الشعوب القديمة تقدرها حق قدرها : فالهنود نسبوها لإلههم (برهم) ، والمصريون لـ (أوزيريس) مخترع المعرفة و (هرمس) موجد العود ، واليونانيون يلقنونها أولادهم فى المدارس وخارجها ويمنعونها عن العبيد . . وكانت جموع الحيوانات الضارية تستأنس بها .

والذى يبدو للباحث أن الموسيقى من أقدم الفنون عهداً فى التاريخ ، وهى طبيعية فى الإنسان وملازمة له ، وكانت مقصورة على الصوت دون أن تصاحبها آلة وترية ، وظهرت فى عالم الوجود مبتدئة بالصفير ، فالتصفيق فالنقر بالأصابع ، فضرب الأرض بالأرجل حتى انتهت إلى الغناء ، ثم استنبطت تدريجاً الآلات الموسيقية التى فى مقدمتها العود والمزمار . .

يوبال . . أب للموسيقيين

وكان (يوبال) من سلالة قابيل بن آدم أبًا لكل ضارب على العود والمزمار ، وإذ كان أول من عزف على العود ، ونفخ فى المزمار ، وذلك قبل الطوفان بنحو ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد . وقيل : إن لفظ (يوبيل) اشتق من لفظ (يوبال) اسم مخترعها الأول ، لزعم أن النفخ فى البوق يزاول فى أثناء الاحتفال باليوبيل ، ويسمى قرن اليوبيل .

وقد روى (يوسينوس) أن آدم تنبأ بخراب العالم بالنار مرة وبالطوفان أخرى ، فبنى (شيت) وأولاده عمودين : أحدهما من الحجر والآخر من الطوب ، ونقشوا عليهما شكل الآلتين المذكورتين تخليداً لذكرى هذا الاختراع حتى إذا دمر الطوفان العمود الآخر بقى العمود الأول حافظاً ما نقش عليه من الأشكال ، وهذان العمودان بأرض (سيرياد) .

كما أن هناك رواية أخرى فيما يتعلق باختراع القيثارة يرويها (أبولو دوروس) :

إن النيل — لما تراجع إلى الحدود الطبيعية بعد أن طغى على كافة أراضى القطر المصرى — ترك على شواطئه عدداً كبيراً من مختلف الحيوانات وفى جملتها السلحفاة التى إذا ما جف لحمها داخل الصدفة وجفت أعصابها وغضاريفها من شدة وقع الشمس أصبحت أعصابها

وعضارفها إذا شدت تعطى صوتاً رناناً ، واتفق أنه بينما عطارد (إله الفصاحة والتجارة واللصوص ابن جوبيتر ورسول الآلهة) يمشى متنزهاً على شاطئ النهر صدمت إحدى قدميه صدفة سلحفاة صدمة سمع من ورائها صوتًا فرح به وأعطاه فكره عمل آلة على شكل سلحفاة شد عليها أوتارًا من أعصاب الحيوان المائى . .

الموسيقى غذاء النفس

وكان الأقدمون يرون فى الموسيقى والغناء ما يفرج عن نفوسهم متاعب الحياة . . بل كانوا يرون فيهما ما يعاونهم على مواساتهم فى آلامهم ومصائبهم .

وقد أخذت دول كثيرة عن المصريين الموسيقى والغناء وجعلتهما جزءاً من عباداتها . .

كما أخذهما اليونانيون عن المصريين أيضاً حينما اتصلوا بهم تجارياً فى عهد (أسبيس) وهى «الدولة السادسة والعشرون» .

ويقال : إن (أفلاطون) أقام بمصر ٢٤ عاماً يبحث خلالها أصول الموسيقى . . ويقول فى هذا كبير فلاسفة اليونان (أفلاطون) : «إن الموسيقى غذاء النفس ومبعث الاتزان والفطن ، وهى عطية آلهة الفنون الحرة التى تحوّل ما فينا من شاذ متنقل إلى محكم ثابت ، وترد كل تنافر إلى جناس متناسب ، وتبصرنا طريق الهدى ؟» .

ويقول أيضاً فى كتابه (الجمهورية) : إن الموسيقى علم يجب معالجته كالرياضة البدنية : فالأولى تهذب النفس وتصلح ما فسد منها ، والأخرى تقوى الجسد .

الموسيقى الفرعونية . .
من الأسرار المقدسة

وهكذا انبعثت الموسيقى تتردد فى الأرجاء ، وتشيع فى شتى أنحاء العالم القديم ، وقد أطلق عليه اسم (الموسيقى) نسبة إلى آلهة الفن (Muse) ، ومن هنا اشتق لفظ (Musica) : أى الموسيقى باللغة اللاتينية .



موسيقيون يتقدمهم كاهن بمبخرته (عند قدماء المصريين)

وإذا كانت ألحان الموسيقى المصرية القديمة غير واضحة لنا فذلك يرجع إلى أن الكهنة المصريين قد درجوا فى أزمانهم القديمة على كتمان سر هذا الفن حرصاً منهم على غوامض أسرارهم . .

غير أن الموسيقى القبطية الحافلة بالكنوز الفنية تنهض على أسس الموسيقى الفرعونية . وهى المظهر الباقى للموسيقى الفرعونية المصرية الأصيلة . .

الموسيقى والغناء
عند قدماء المصريين

كان الغناء والموسيقى لازمين فى كل حفل ولا يخلو منهما اجتماع ، لذلك كانت تسمى بأمرهما (ساكنات الحريم) فى كل منزل عريق . . وإذا كان عدد هؤلاء الموسيقيين والموسيقيات كبيراً – كما كان فى القصر الملكى – فإنه فى تلك الحالة يرأسهم موسيقى عظيم محترف . .

أشهر الموسيقيين والمطربين

وقد عرفنا أسماء عدد من رؤساء فرق العزف هؤلاء ، فنجد فى الدولة القديمة رئيسة الغناء (حم رع) التى كانت فى الوقت نفسه مشرفة على الحريم ، ثم ثلاثة رؤساء للأغانى الملكية كانوا أيضاً مشرفين على جميع ملاهى الملك الجميلة وهم :

(Snefrunefer, Meri-Ptoh-Re & Ete.)

والأولان منهم كانا أيضاً مغنيين يفتخران بأنهما (كانا يبهجان قلب الملك فى القصر بالأغانى الجميلة) ، وأنهما كانا يلبيان جميع رغبات الملك بالغناء الجميل ؛ ولهذا بلغا درجة عالية فى البلاط ، وكانا كاهنى الطقوس الجنائزية للملك وأسلافه . . ثم نجد فى الدولة الحديثة شخصاً يدعى (Nefferrompe) كان (رئيساً لمطربى فرعون) ، وكان أخوه مشرفاً على الحريم وكاهناً للتيجان ومشرفاً على جميع مطربى الآلهة : أى أنه كان مديراً لكل جماعات منشدى المعابد فى مصر .

طريقة الغناء عند قدماء المصريين

وكانت العادة العامة عند قدماء المصريين تقضى بأن يتولى من يغنى ضبط النغم بتصفيق الأيدى ، وكان المغنى يفعل ذلك بتحريك الذراعين بشدة ، على حين كانت المغنية تكتفى بتحريك الأيدى فحسب ، وقد كان للمصريين صلة وثيقة لا انفصام لها تربط بين الغناء الفنى الصحيح والتصفيق ، ويبدو هذا فى كلمة (يغنى) فى الزمن القديم ؛ إذ كانت تكتب دائماً بعلامة الذراع . وقد حافظت الدولة الحديثة على هذه العادة الخاصة بالتصفيق بالأيدى لضبط النغم ، ويبدو هذا واضحاً حتى يومنا هذا فى ضبط الإيقاع بالتصفيق بالأيدى .

وكان المصريون يفضلون استخدام المغنين (العميان) الكفيفى البصر ، ومن هؤلاء كان فى مصر منهم كثيرون ! .



موسيقيون من قدماء المصريين كفيفو البصر

الآلات الموسيقية عند قدماء المصريين

وكان (الجنك) فى جميع العصور أحب آلات الموسيقى يستخدمونه بمختلف الأحجام : ففى الدولتين القديمة والوسطى نجد منه ما هو متوسط الحجم ذو ستة أوتار أو سبعة يعزفون عليه جلوساً ، ومنذ الدولة الحديثة ظهر إلى جانبه أيضاً (جنك) كبير الحجم له نحو عشرين وتراً مما اقتضى العازف أن يقف عند العزف ، وقد ظهر نوع صغير جداً يعزف عليه ، وهو على الكتف وذلك منذ الدولة الحديثة ، وفيما عدا هذا فإن تركيب الآلات لم يظل بطبيعة الحال واحداً خلال القرون المتعاقبة ، وبخاصة صندوق (الجنك) ، فقد تعرض على مدار الزمن لتطورات كثيرة .

وكان المزمار أكثر الآلات وروداً وانتشاراً إلى جانب الجنك منذ أقدم العصور . وقد نشأ المزمار أيضاً بأرض مصر التى كانت موطناً له ، وكانوا يستعملون فى الدولة القديمة شكلين متشابهين تقريباً معاً : أحدهما المزمار الطويل الذى يضعه العازف بميل خلفه . والآخر قصير يمسكه العازف أفقياً عند العزف ، ونجده مستعملاً أحياناً عند العمل فى جمع المحصولات وفى الدولة الحديثة غلب استعمال المزمار المزدوج إلى جانب هذين النوعين . .

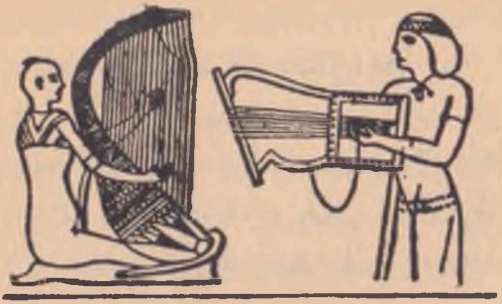
وقد عثر على أمثلة من هذه المزمارات يرجع عهدها إلى الدولتين القديمة والوسطى لا تزال محفوظة لدينا ، وهى تصنع غالباً من القصب (الغاب) ، وأحياناً من الخشب ولها أحياناً أفواه من البردى .

وبقى الجنك والمزمار فى الدولة الوسطى أداتى الموسيقى (الوحيدتين) عند قدماء المصريين ، ومنذ عصر الدولة الحديثة نجد عدداً من الآلات الجديدة أدخل معظمه إلى مصر من الأقاليم الآسيوية مثل : الطنبور الذى يعزف عليه بريشة العزف ، والجنك الصغير ذى ثلاثة الأوتار الذى كثر استعماله فى الدولة الحديثة و (الكنارة) التى تنبئ بأصلها الأجنبى من اسمها (كنر Kenner) ، وقد وجدنا هذه الكنارة مرة واحدة قبل الأسرة الثامنة عشرة فى الرسوم المصرية بين يدى بدوى آسيوى ، وقد كثر ورودها فى الرسم والصور بعد اتصال المصريين المستمر بالآسيويين حتى غدت الآلة الموسيقية العصرية فى الدولة الحديثة .

وعندما نذكر مختلف أشكال الطبول فى الدولة الحديثة و (الصنوج) التى تستعملها الراقصات ، والطبول التى على شكل برميل وأبواق الجند ، فإننا نكاد نكون قد ذكرنا جميع ما كان عند المصريين القدماء فى عصورهم المختلفة . من آلات الموسيقى . .

الرجال والنساء يعزفن معاً

ويبدو أن استعمال آلات الموسيقى فى العصر القديم كان مقصوراً على الرجال ، وإن كنا نرى أحياناً النساء يعزفن على (الجنك) وهذا لا يحدث إلا إذا استطعنا أن ننفذ بأبصارنا إلى أخص ما فى الحياة الخاصة لرب المنزل : ففى مقبرة (مروروكا) يجلس السيد رب المنزل على السرير فى استرخاء ، ويستمع إلى غناء زوجته على (الجنك) ، أو فى تمثال جميل من الدولة الوسطى يرينا (رئيساً للمنزل) يشترك فى حفلة موسيقية فى الحريم : فهو يجلس وفى يده اليمنى مذبة فى محفته التى يتخذها فى المنزل كمقعد ذى مسندين ، وتشاركه فيها امرأة جميلة ، وإلى جانبه يقوم بالعزف على (الجنك) رجل وامرأة وأمامهما تجلس ثلاث فتيات على الأرض يغنين ويصفقن بالأيدى ، وفى الحالات التى يكون فيها الموسيقيون من الرجال فقط فإنهم يظهرون دائماً مع المغنين الذين يقودون حركة الموسيقى بتصفيق الأيدى . وكانت الفرقة الموسيقية العادية فى الزمن القديم تتألف من (جنكين) و (مزمار) طويل وآخر قصير ، وإلى جانب كل موسيقار مغن يصاحبه مصفقاً بيديه لضبط النغم . . وكان من النادر أن يستعمل (الجنك) وحده لمصاحبة الغناء .



رجل وامرأة يعزفان معاً

أما فى الدولة الحديثة فقد زاد عدد النساء اللائى كن يعزفن على الآلات الموسيقية ، وكان غناء النساء محبوباً عند المصريين ، وامتزجت أصواتهن وأصوات الرجال فى مصاحبة جميع الآلات .

أغانى الحفلات

وبينما كانت الراقصات والمغنيات فى الحفلات يتولين إشاعة البهجة والسرور فى قلوب الضيوف ، كان الخدم يقدمون الدهون وأكاليل الأزهار والطيوب وأقداح النبيذ ويدعون الضيوف منادين : (احتفلوا باليوم السعيد) يحثونهم على الاستمتاع بالوقت الحاضر السعيد ، ويكرر المغنون النداء نفسه بلا انقطاع كالختام لأغانيهم ، فيرتفع صوت رجل بالغناء أمام الضيوف :

«ضع المر على رأسك
وارتد ما خف وهف من قماش كتانى رقيق
وقلب مفعم بالفرح والسرور» .

أو أغنية أخرى تقول كلماتها :

« ضع المر على رأسك
وارتد ما خف وهف من قماش وكتان رقيق
وضمخ بدنك بالعجائب الحق الخاصة بالإله
زين نفسك بأجمل ما تستطيع
واحتفل باليوم السعيد ولا تهدأ فيه
لأنه ما من أحد أخذ معه ما يملكه من مقتنيات

وما من أحد عاد ممن انطوى أجله وذهب إلى هناك ! » .

وكان الضيوف عندنا يستمعون إلى هذه النصائح التى تحثهم على الاستمتاع بالحياة قبل أن يفاجئهم الموت فيضع حدًّا لكل لذة وبهجة ، يسرّون عن أنفسهم بالنبيذ ، وأخيراً يحدث هرج ومرج من الإفراط فى الشراب .

ولم يقنع المصريون بما كان يقام من حفلات فى الأعياد ، ولكنهم كانوا يتصيدون الفرص التى تهيئ لهم من الظروف – حتى دون أن يوجد سبب ظاهر – مما يتيح لهم إقامة (بيت جعة) ، وهذا معناه حفلة صغيرة .

وإلى جانب ذلك – فى أواخر الدولة الحديثة – منتديات عامة لشرب (الجعة) تسيل فيها أنهار من (الجعة) مختلطة بالأغانى والأناشيد فى جو يفيض مرحاً ، وتبدو شكوى (تفنختى) من مطاردة (بجنخى) مؤثرة حين يغنى فيقول :

« لم أعد أجلس فى مشرب الجعة
ولم يعد يعطينى أحد الجناك
ولا آكل العيش إلا حين أجوع
ولا أشرب الماء إلا حين أعطش
منذ ذلك اليوم الذى سمعت فيه باسمى » .

أغنية شكوى الفلاح الفصيح

وهذه قصة شكوى الفلاح المصرى القديم (خوان أتوب) الذى خرج من قريته بعد أن حمّل حميره بشتى السلع ليبيعها فى مدينة (أهناسيا) – غير أن أحد موظفى المدينة (تحوتى نخت) أحد أتباع (رنس) بن (مرو) رئيس مديرى القصر الملكى – اعترض سبيله واستولى على حميره بما عليها من سلع لأسباب واهية . . برغم احتجاج الفلاح على ذلك . .

ولم يستكن الفلاح ويرضخ لهذا الظلم . . وذهب إلى العاصمة وقدم شكواه إلى (رنس) طالباً إنصافه . . وتكررت شكايات الفلاح المظلوم . . وعندما علم الملك بأمر هذا الفلاح طلب أن يطيل من شكايته ويدون ما يبوح به . . ثم أوصى بالعناية بأمره . .

ولقد دارت شكاية القروى حول العدل والإنصاف .

وقد أمر فرعون بأن يعوض الفلاح عن كل ما فقده وانتقم له ممن ظلمه دون وجه حق وأعطاه كل ما كان يمتلكه . .

وشكوى الفلاح . . كانت كأغنية منظومة . . فى أسلوب فنى يصعب علينا اليوم أن نقدر دقائقها تماماً . . وفيما يلى نماذج قليلة منها :

«أنظر أنك المدبر وبيدك الميزان
فإذا اختل هذا الميزان فإنك تختل أيضاً
لسانك هو ذاك اللسان الصغير للميزان
وقلبك هو تلك الصنجة
وشفتاك هما قلب الميزان
فإذا سترت وجهك عن الظالم
فمن ذا الذى يمكنه أن يدفع العار؟

* * *

ياربان السفينة لا تدع سفينتك تغوص فى الرمال
أيها المعين لا تدعْ أحداً يموت
ياصيد (الرذيلة) لا تدع أحداً يهلك
أيتها الملاجئ لا تساعدى التمساح على السرقة!

* * *

أنت كمن يصنع العدل
وكمن يصنع كل طيب ويبيد كل خبيث
أنت تجىء كالشبع، وبمجيئك ينتهى الجوع!
أنت تجىء كالثياب وبمجيئك ينتهى العرى!

أنت كالسماء الهادئة بعد عاصفة هوجاء !
تعطى الدفء لمن أصابه البرد
أنت كالنار تنضج الطعام !
أنت كالماء تروى الظمأ ! » .

أغانى العمال والفلاحين

وهذه بعض الأغنيات القصيرة التى كان ينشدها قدماء المصريين منذ خمسة آلاف سنة على نحو لا يزال يترنم به الفلاح فى الوقت الحاضر ساعات طوالاً بالقرب من الساقية أو عند قيامه بعمل آخر بسيط . . وإننا نجد هذه الأغانى مدونة بجانب الصور المنقوشة على جدران المقابر . .

ونقوش مقبرة باحرى أمير الكاب فى عصر تحوتمس الثالث غنية بمثل هذه الأغانى القصيرة ، فمنها مثلاً : ينادى أحد الفلاحين القائمين على الحرث صبياً يسير بجانب الثيران ومعه عصًا :

«أسرع أيها السائق
استحث الثيران
انظر فالأمير
يقف ويراقب» .

ويعلو منظر الحرث بأكمله هذه الأغنية :

«إنه ليوم جميل
الجو رطب
والثيران تجر

والسماء تفعل بحسب رغبتنا
ونحن نعمل للأمير ! » .

وقد نقشت هذه الأغنيات القصيرة بجوار أشخاص يحرثون الأرض أو يجرون المحراث بأنفسهم بدلاً من الثيران أو بجانب بحارة يرسون سفنهم على الشاطئ إلى غير ذلك من أغنيات قصيرة كان يترنم بها الفلاح والعامل المصرى قديماً . .

وهذه أغنية يترنم بها الفلاح وهو يسوق – دون كلل – ثيرانه التى تدرس الحبوب ، تقول كلماتها :

« ادرسوا لأنفسكم ، ادرسوا لأنفسكم
أيتها الثيران ، ادرسوا لأنفسكم
فاليوم رطب عليل ! » .

وهذه أغنية يترنم بها الحمالون ترويحاً لهم فى أثناء جر أكياس الحبوب إلى السفن تقول كلماتها :

« انقضى اليوم بأكمله
نحمل القمح والحب الأبيض
لقد امتلأت المخازن
وجاوزت أكوام الحزم حدها
وامتلأت السفن الواسعة
وفاض القمح ! » .

وقد حُفظت لنا من مثل هذه الأغنيات القصيرة للفلاح والعامل أغنيتان من عصر الدولة القديمة . . يغنى إحداهما الراعى لخرافه وهو يسوقها بعد انحسار مياه الفيضان (الدميرة) لكى تدخل بحوافرها الحب فى الطمى ، أما الأغنية الأخرى فتقول كلماتها :

« الراعى فى الماء
بين الأسماك
وهو يحدث القرموط
ويتسامر هو والسمك الغربى
إن راعيكم هو راعى الغرب » .

وهذه أغنية يترنم بها الحمالون الذين يحملون سيدهم فى محفته :

« هى أحب (إلينا) وهى ملأى
منها وهى خالية » .

أغانى الشراب

كما كانت هناك أغان قصيرة تغنى فى مناسبات أخرى كالمواكب الجنائزية أو حفلات الشراب . . ففى مقبرة باحرى التى اقتطفنا منها أغانى العمال ، نرى مجتمعاً من رجال وسيدات الطبقة الراقية يشربون النبيذ ، وقد نقشت إلى جانب هذا المنظر كتابات مختلفة تبين لنا العبارات التى كانت تقدم بها الخادمات كئوس النبيذ :

« اشرب ، لا ترفض ، وإلا فإن أذهب عنك » .

فإن ذلك يبدو فى الواقع كأنه حديث نثر ، وإذا قدمت خادمة النبيذ إلى سيدة قالت :

« فى صحتك
اشربى حتى تثملى
واحتفلى بهذا اليوم الجميل
استمعى إلى ما تقوله جارتك
ولا تضيقى ذرعاً بالسرور ! »

أو عندما تنادى إحدى السيدات قائلة :

« أعطنى ثمانى عشرة آنية من النبيذ
انظروا إنى أحب (أن أشرب) حتى أثمل

فجوفى (جاف) كالقش ! » .

فإنه يبدو أن هذه العبارات بقية حفظت لنا من أغانى الشراب البسيطة ، وخاصة إذا لاحظنا أن الموسيقيات والمغنيات كن يحيين حفلات الشراب .

أغانى الحياة . . والموت . . والخلود . .

ومع ذلك لاشك فى أنه كانت فى مصر القديمة أغنيات للشراب أكثر إبداعاً من الناحية الفنية ، نعرف أنها كانت تنشد بمصاحبة الجنك فى حفلات الأمراء ، وأنها – على نقيض الدعوة إلى الابتهاج بالسرور – تدعو الشاربين إلى تذكر الموت القريب ، وقد جاء فى المصادر اليونانية أنه كان يعرض فى مجالس الشراب فى مصر ، صورة لمومياء حثًّا على الاستمتاع بالحياة القصيرة عن طريق تذكر الموت ، ولدينا أغنية تصور لنا هذه الفكرة تصويراً فنيًّا جميلاً ، وأقدم صيغة معروفة لهذه الأغنية هى (الأغنية التى توجد أمام الضارب على الجنك فى معبد مقبرة أنتف) : أى الأغنية التى كانت مسجلة فى مقبرة أحد ملوك الأسرة الحادية عشرة إلى جانب صورة مغن ، وقد حفظت لنا هذه الأغنية مرتين من عهد الدولة الحديثة ، وبذلك لابد أنها كانت محبوبة فى ذلك الوقت وتقول كلماتها :

«تتلاشى الأجساد وتفنى
فى حين يبقى غيرها منذ عهد الأجداد
والآلهة (أى الملوك) الذين عاشوا فى الأزمنة الغابرة
يستقرون فى أهرامهم

وكذلك الأشراف والأمجاد
مدفونون فى أهرامهم
أولئك الذين شيدوا الدور – لم يعد لديارهم وجود
ماذا حدث لهم ؟
لقد سمعت كلمات إيمحوتب وددف حور
اللذين يتحدث الناس بأقوالهما فى كل مكان
كيف حال ديارهما ؟
لقد تهدمت جدرانهما !
ولم يعد لديارهما وجود !
كأن لم تكن !
لا أحد يأتى من هناك يحدث عن حالهما
يحدث عما يحتاجان إليه
ويطمئن قلوبنا
حتى نقترب من المكان الذى ذهبا إليه ؟
ابتهج ، ودع القلب ينسى
واتبع قلبك ما حييت
ضع المر على رأسك وتحل بأفخر الثياب
متعطراً بعجائب الآلة الحقيقية
ابتهج

ولا تدع قلبك يقنط
واتّبع قلبك وملاهيك
وأنجز أعمالك على الأرض
ولا تعذب قلبك
حتى يدركك يوم العويل
(لأن) أزوريس لا يسمع نواحهم
ولا ينقذ العويل أحداً من القبر
لذلك احتفلْ باليوم السعيد
ولا تكلّ منه
فلن يُسمح لأحد أن يأخذ متاعه معه
ولا أحد ممن ذهبوا يعود» .

لذلك تمتع بحياتك ما استطعت قبل أن يقف قلبك (هذا هو المغزى المراد فى هذه الأغنية) .

هذا هو ما أراد أن يقوله الشاعر المصرى القديم ، فهو يُذكّر أبناء جيله وعصره أن يوم الوفاة يأتى قبل أن تتوقعه والعويل والقرابين لا تعيد الميت إلى الحياة ! وما تحصل عليه هنا من ثروة تتركه وراءك ، وما تشيده على الأرض يتهدم ، أما المسرات التى نعمت بها فهى التى تملكها حقًّا .

وهناك شيء آخر يقوله الشاعر المصرى القديم يمكنك أن تفوز به حتى لا يضيع منك أبداً :

«أعط الحب والخير والخبز من حولك

واجعل لنفسك على الدوام اسماً طيباً فى الأجيال التالية» .

وإذا دلت هذه الأغانى على شىء فإنما تدل على شدة تعلق المصريين بالحياة ومباهجها ، شأن كل شعب سليم قوى . حقًّا لقد كان الرجل التقى يعتقد استمرار الحياة بعد الموت ، ولكنه لم يكن ينتظر هناك غير وجود خيالى لا يدعو إلى الابتهاج ، ومع ذلك لابد أن يكون الاعتقاد فى مباهج عالم أوزريس قد تزعزع منذ مدة طويلة عندما أمكن التحدث عن الموت على هذا النحو كما جاء فى الأغنية السابقة .

وهناك شك مماثل فى قيمة الآثار التى تشيّد للميت ، يتجلى فى إحدى هذه القصائد الغريبة التى حفظت لنا من مصر القديمة ، ولو أنها لا تعدو أن تكون أغنية من أغانى الشراب ، وفيها يتردد صدى الشك أكثر مرارة ؛ إذ ليس فى الحياة لذة ؛ فقد أصبحت الحياة عذاباً للرجل الذى أنشدها ، وهو يشتهى الموت . . ومع ذلك يرهبه ، لأنه – وقد تركه جميع أصدقائه وأقربائه – لم يعد له أحد يقيم له المراسيم الجنائزية غير روحه التى يرجوها القيام بهذه المهمة تحاول بوصفها كآبة الموت أن توجهه إلى أفكار أخرى ، كل هذه المشاعر صورها الشاعر المصرى القديم فى هذه الأغنية :

«إذا فكرت فى الدفن فهذا شىء محزن

إنه لشىء يجلب الدمع ويحزن الناس

فإنك لن تصعد لترى الشمس
إن أولئك الذين شيدوا من الحجر الجرانيت الأحمر ..
والذين أقاموا الأشياء الجميلة بهذا الصنع الجميل ..
موائد قرابينهم خالية
كموائد الحفاة الذين ماتوا على شاطئ النيل ..
والذين تتحدث معهم الأسماك على حافة الماء
أطعنى فإن الطاعة مفيدة للناس
اتبع اليوم السعيد وانس الأحزان ! » .

وهذه أغنية أخرى فى أمل الموت يقول فيها الشاعر :

« يتمثل الموت أمامى الآن
كما لو أن مريضاً عوفى
كالسير بعد السقوط
يتمثل الموت أمامى الآن
كأريج المر !
كالجلوس تحت الشراع فى يوم عاصف
يتمثل الموت أمامى الآن
كعبيق أزهار اللوتس
أو كالجلوس لمعاقرة الشراب على الشاطئ
يتمثل الموت أمامى الآن

كطريق فى المطر
كعودة الإنسان إلى وطنه فى سفينة حربية
كرجل يتمنى أن يرى داره (ثانية)
بعد أن عاش سنين طويلة فى الأسر! » .

أغانى الغش وعدم الوفاء

وهذه أغنية أخرى يصف فيها الشاعر هؤلاء الذين كانوا سبباً فى نحسه ، فينظر إلى مجتمع عصره ، فلا يجد فيه إلا الغش والخيانة والظلم وعدم الوفاء حتى بين أقاربه فيقول :

« لمن أتكلم اليوم ؟ الإخوة شر وأصدقاء اليوم ليسوا جديرين بالحب !

لمن أتكلم اليوم ؟ الناس شرهون ؟ وكل إنسان يغتال متاع جاره !

لمن أتكلم اليوم ؟ اللطف قد باد ، والوقاحة صارت فى كل القوم !

لمن أتكلم اليوم ؟ فإن من كان ذا وجه باش أصبح خبيثاً ، وأصبح الخير ممقوتاً فى كل مكان !

لمن أتكلم اليوم ؟ فإن الذى يستفز الرجل الطيب بأعماله الشريرة يسر منه الناس ، ويضحكون كلما كانت خطيئته شنيعة !

لمن أتكلم اليوم ؟ الناس يسرقون ، وكل إنسان يغتصب متاع جاره !

لمن أتكلم اليوم ؟ فقد أصبح الرجل المريض هو الصاحب الذى يوثق به ، أما الأخ الذى يعيش معه فقد صار العدو !

لمن أتكلم اليوم ؟ إذ لا يذكر أحد الماضى ، ولن يفعل الخير لمن يسديه إليه !

لمن أتكلم اليوم ؟ الإخوة شر والإنسان صار يعامل كعدو برغم صدق ميوله !

لمن أتكلم اليوم ؟ إذ لا نرى الوجوه ، وأصبح كل إنسان يلقى بوجهه فى الأرض إعراضاً عن إخوانه !

لمن أتكلم اليوم ؟ والقلوب شرهة ، والرجل الذى يعتمد عليه معدوم ، وأصبح يعامل الإنسان كأنه فرد مجهول برغم أنه قد جعل نفسه معروفًا !

لمن أتكلم اليوم ؟ إذ لا يوجد أحد فى سلام والذى ذهب معه لا وجود له !

لمن أتكلم اليوم ؟ فإنى مثقل بالشقاء وينقصنى خل وفى !

لمن أتكلم اليوم ؟ فإن الخطيئة التى تصيب الأرض لا حد لها ! » .

الأغانى العاطفية

وهناك الأغانى العاطفية عند قدماء المصريين – التى حفظ لنا منها عدد وافر من عصر الدولة الحديثة – وهذه أغنية تمثل لنا فتاة أضناها الحب ، كيف تتطلع سدى فى الحقل لرؤية « أخيها المحبوب » ، إذ لم تجد لذة فى شىء حتى فى الفطائر الحلوة ، ولا فى عصير الفواكه الذى كانت تشعر بحلاوته فى فمها ! فأصبح مُر المذاق كمرارة الطيور ، وما كانت تؤديه بسرور لم تعد تجد فيه التوفيق ، فهى تتفقد حبيبها فى كل شىء وتناجيه وتقول :

« أقول لك : انظر إلى ما يحدث
لقد حضرت ونصبت الفخ
وأمسكت الفخ بيدى
كل طيور (بنت) التى تخفق بجناحيها فوق مصر
معطرة بالمر
ومن يصل منها أولاً يأخذ الدودة منى
رائحته هى رائحة بنت
ومخالبه مملوءة بالراتنج
قلبى يهفو إليك انفتح الفخ معاً

أنا وأنت معاً بمفردنا
ولأسمعك صرخه المعطر بالمر
ما أجمل أن تكون معى هناك !
عندما أنصب الفخ » .

ولكن المحبوب لا يأتى ، ليساعدها ، فتقول :

« صوت الإوزة ينوح
وهى تلك التى اغتصبت الطعم
ولكن حبك يربكنى
فلا أستطيع فك الفخ
سأنزع شباكى
ولكن ماذا عساى أقول لأمى ؟
فكل يوم أرجع إليها محملة بالطيور
أما اليوم فلم أنصب شباكى
لأن حبك قد ملكنى » !

ولكنها ما تلبث أن تصرح عن أمانيها فتقول :

« أيها الجميل ، أمنيتى أن أكون معك كزوجة لك
حتى يستقر ذراعك على ذراعى ..
إن لم يحضر أخى اليوم ليلاً
فسأكون كمن يرقد فى القبر

ألست أنت الصحة والحياة ؟ » .

وأخيرًا تعثر على حبيبها بعد ليلة لم تذق فيها طعم النوم

« صوت العصفورة يتكلم

ويقول : عمّ الضياء ، أين يقودنى طريقى ؟

ألست تغيظينى أيتها العصفورة ؟

لقد وجدت حبيبى فى فراشه

قلبى مبتهج ..

إنه يقول لى : لن أتحول عنك

يدى فى يدك

سأخرج للنزهة ، ويجب أن تكونى إلى جانبى فى كل الأماكن الجميلة .

لقد جعلنى سيدة الفتيات ولو يوجع قلبى » .

ويشكو الفتى فى أغنية عاطفية فيقول :

« سأرقد فى حجرة نومى

لما أصابنى من ضيم

عندئذ يأتى جيرانى ليرونى

وتأتى معهم حبيبتى

فتجعل الأطباء يخجلون

لأنها تعرف سبب علتى » .

وهذه أغنية أخرى ، غابت عنه حبيبته ، ولم تحضر إليه وهو يتمنى أن يضحى بكل شيء إذا حدثته مرة واحدة فقط !

« قصر حبيبتى
بوابتها فى وسط بيتها
ها بابها مفتوح على مصراعيه
ها تخرج أختى غاضبة
آه لو أننى بوابها
حتى تؤنبنى
فأسمع صوتها ! » .

وكانت وما زالت الحديقة مكان الحب ، وكانت أشجارها محل ثقة المحبين ، فنى اليوم الذى تكون فيه الحديقة محتفلة بيوم عيدها يكون معناه اليوم الذى يكتمل فيه ازدهارها .. وتدعو فيه شجرة التين البرية الفتاة لكى يكون اللقاء تحت ظلالها الوارفة :

« إن شجرة الجميزة الصغيرة
التى غرستها بيدها
ها هى ذى تتهيأ للتكلم
إن (كلامها) كالشهد المقطر
إنها فاتنة ، وإن غصونها جميلة
مخضرة كالبردى

وهى محملة بالفاكهة
تفوق العقيق حمرة
وأوراقها مثل (الملاخيت) ..
وفى لهيب الحر تنشر النسمات العليلة
وإنها تضع خطاباً فى يد فتاة صغيرة
ابنة بستانيّها الأول
وتدعو الى الإسراع به إلى الحبيبة
تعالى واقضى وقتاً فى (الحديقة) ..
فبستانيوك فرحون
ويتهللون لأنهم يرونك
ألا فلترسل خدمك يسبقونك
مثقلين بأدواتهم
إن الإنسان لينتشى عندما يسرع للقائك
دون أن يشرب الخمر
إن خدمك يأتون بأشيائهم
إنهم يحضرون جعة من كل (نوع)
وجميع صنوف الخبز أنواعاً
وأزهاراً كثيرة من الأمس واليوم
وجميع أنواع الفاكهة المرطبة المنعشة

تعالى واحتفلى بيومك هذا
وزيديه بغد. ثم ألحقيه باليوم الذى يليه ثلاثة أيام كاملة
جالسة فى ظلالى
وإن حبيبها يجلس إلى يمينها
وهى تسكره
وتستجيب إلى ما يقول
ويشترك أتباعها معها فى السكر
فى حين تتنحى هى ناحية مع أخيها
ولكنى كتومة أحفظ السر
ولن أبوح بشىء مما أراه
ولم أثرثر بكلمة » .

الأناشيد الشعبية الدينية

وإذا طرقنا الأناشيد الدينية للمصريين فإننا نستروح نسيماً يخالف ذلك كل الاختلاف حقًّا ، إذ كانت تنشد فى المناسبات الشعبية كمواكب الجنازات أو مباركة الحقول عند بدء الفيضان .

هذه الأناشيد الدينية التى تشبه إلى حد كبير الأغانى الشعبية الأخرى فى جوهرها ..

مثلاً هذه الأغنية .

« أيها القبر ، لقد شيدت للعيد

وأنشئت لكل شىء طيب » .

تلك الأغنية التى نجدها منقوشة بجانب ضارب الجنك على نصب مقبرة من عصر الدولة الوسطى لا يمكن إلا أن تكون أغنية شعبية فى غاية البساطة ، كان يغنيها أهل الميت فى الأعياد الجنازية فى المقبرة !

وهذه أغنية أخرى تماثلها فى بساطتها من عصر الدولة الحديثة – وإن كانت خاصة بالنيل – إلا أنها تتسم بالبساطة والشعبية . كان يترنم بها الفلاحون عند ظهور تباشير الفيضان . تقول كلماتها :

أقبلى تحوت

بالماء إلى الحقول

لتشرب الماشية
وترتوى الأشجار
وحتى تغذى الأرض كلها » .

وكان للنيل الكثير من الأغانى الشعبية له من مكانة وصلت حد التقديس والعبادة .. وهذه الأغنية يصور فيها الشاعر المصرى القديم النيل حينما يفيض بهذه الكلمات :

« يرتعشون ! من يرون النيل فى فيضان تام
والحقول تضحك
وشاطئا النهر يفيضان
وقربان الإله ينزل
ووجوه القوم مستبشرة
وقلوب الآلهة فرحة » .

الأناشيد الدينية للآلهة

على أننا ما نكاد نصل إلى الأناشيد للآلهة وهى تلك الأغانى التى تستغرق موضوعاتها مدح الآلهة حتى نجدها جافة خالية من الينابيع التى غمرت بها الأغانى الأخرى ، بل نجدها تجرى على نسق واحد متكرر ، تفيض بالإشارات الكثيرة عن الأساطير المختلفة .

فهذه مثلاً (أنشودة) « أوزوريس » من عصر الدولة الوسطى :

« الصلاة لك يا أوزوريس يابن توت

رب القرون

ذا العمود السامق

يا من أعطى التاج والسعادة أمام الآلهة

يا من خلق من أتوم

يا من قوته فى قلوب الناس والآلهة والأرواح

يا من أعطى السيادة فى هليوبوليس

يا علىّ الشأن فى بوزيريس

رب الذعر فى « أيادتى »

يا عظيم الرجولة فى « رستو »

رب الجبروت فى هيراكليوبوليس

وسيد سستروم فى تانيت
يا عظيماً حبه فى كل بلد
وذكره الجميل فى قصر الآلهة
يا عظيم البهاء فى أبيدوس
يا من منح النصر أمام الآلهة » .

ويلاحظ أن هذه الأنشودة لا تتضمن سوى تعداد للأماكن المقدسة ، ولصفات الإله ، وعلى شاكلة هذا تماماً نجد عدداً وافراً من أناشيد الآلهة الأخرى .

كما كان يُرحب بالآلهة فى المعابد فى الصباح بأنشودة تشمل – على الأخص – النداءات التى كانت تتكرر دائماً « استيقظ فى سلام » ويتبع تلك النداءات فى كل مرة اسم مختلف للإله ، وعلى ذلك كان المفروض أن الآلهة كانت تستيقظ كذلك فى السماء بهذه الطريقة نفسها بآلهة أيضاً .. وهذا يساعدنا على فهم كنه هذه الأنشودة وهى الأغنية التى كانت النسوة يوقظن بها الملوك فى الصباح فى أقدم عهود مصر التاريخية .

ويمكن أن يفرض الإنسان أن ألفاظاً مثل : (أنت يا ملك ، أنت يا سيد مصر ، أنت يا رب القصر) – قد حلت محل الأشياء الإلهية فى النسخة الأصلية للأنشودة ، وكانت تغنيها النساء بهذا الشكل أمام مسكن الآلهة على وتيرة واحدة بدون انقطاع ما أسعفتها الذاكرة ، فتردد المغنية بأسماء صالحة مثلاً : كان يغنى إلى إله الشمس فتنشد أغنية لإله

الشمس تقول :

استيقظ بسلام أنت أيها الواحد المطهر

فى سلام استيقظ بسلام أنت يا حور الشرق

فى سلام استيقظ أنت يأيها الروح الشرقى

فى سلام استيقظ بسلام أنت يا حور أختى

فى سلام أنت تنام فى قارب الغروب

أنت تستيقظ فى قارب الصباح

لأنك أنت الذى تشرق على الآلهة

ولا إله يشرق عليك ! » .

ومن بين أغانيهم الدينية أناشيد أخرى لإله الشمس أو كما كان يسميها المصريون « تمجيدات رع » وكان يجب أن يعمل الإنسان وأن يتجه إلى الشمس المشرقة منشداً :

« الصلاة لك يارع عند الشروق

ويا أتوم عند الغروب

إنك تشرق وتسطع وتسطع متوجًا كملك الآلهة

أنت رب السماء ورب الأرض

الذى خلق الكائنات العليا والسفلى

أيها الإله الأوحد الذى كان منذ البدء

الذى أنشأ العالم وخلق البشر

والذى أنشأ ماء السماء وخلق النيل
والذى أنشأ الماء وأحيا ما فيه
الذى عقد الجبال
وأنشد الإنسان والماشية »

أو ينشد هذا النشيد أيضاً :

« الصلاة لك يا من يشرق فى نهر السماء ويضىء القطرين بعد أن يبزغ
تسبح لك الآلهة .. جميعاً ..
أيها الفتى الجميل فى الحب
إن أشرق يحيا البشر
وتهلل الآلهة له
تكبر له أرواح هليوبولس
وتعظم من شأنه أرواح بوتو
وتمجده القرود وتسبح له سائر الحيوانات معاً » ..

ولما كان آمون كبير آلهة الدولة الحديثة فقد أصبح (آمون – رع) : أى أصبح إله الشمس ، لذلك كانت له أناشيد كثيرة له منها هذا النشيد :

« الذى خلق كل ما هو موجود
ومن عينيه نشأ الإنسان

ومن فمه الآلهة
الذى فطر الأعشاب الماشية
وأشجار الفاكهة للإنسان
الذى يمنح الأسماك فى الماء الحياة
الذى يمنح الفرخ الهواء فى البيضة
ويحفظ ابن الدودة حيا
الذى خلق ما يعيش عليه البعوض
والديدان وكذلك البراغيث
الذى خلق ما تحتاج إليه الفئران فى جحورها
والذى يحفظ الطيور على سائر الأشجار » .

كما كان هناك نشيد آخر للشمس ، وهو نشيد الشمس الكبير للملك (أخناتون) ، ونفخر إذ أنه نشيد كبير لم تصل إليه أى أمة أخرى حتى اليوم فى التشبه به أو إيجاد معانيه وعميق جوهره وتعبيراته التى سبقت عصره !

وكان هذا النشيد الكبير ينشد بمصاحبة الجنك فى معبد أتون فى العمارنة عند الشروق والغروب — وهو على النحو التالى :

« إنك تسطع جميلاً فى جبل النور فى السماء
يا أتون الحى يامن عاش أولاً
إنك إذا أشرقت فى جبل النور الشرقى

ملأت كل بلد بجمالك
إنك جميل ، إنك عظيم
إنك تتلألأ عاليا فوق كل بلد
وأشعتك تضم البلاد
وكل شيء خلقته

* * *

إنك بعيد (ولكن) أشعتك على الأرض ..
فإذا غربت فى الأفق الغربى
أظلمت الأرض كأنها ميتة
ويستقر الناس فى حجراتهم وقد غطوا رءوسهم
ولا ترى عينٌ عيناً أخرى
فإذا سرق سائر ما تحت رءوسهم
فإنهم لا يلحظون ذلك
وتخرج سائر السباع من عرينها
وتعض سائر الثعابين
ويخيم السكون على الأرض
فخالقها قد غرب فى جبله النورانى

* * *

فإذا أشرقت فى جبلك النورانى أضاءت الأرض

وإذا سطعت فى النهار كأتون من الظلام
وإذا أرسلت أشعتك
عم الفرح كلا القطرين
واستيقظ الناس وقاموا على أقدامهم
لأنك أنت الذى تقيمهم
فيغتسلون ويلبسون ملابسهم
وتسبح أذرعتهم لأنك تتلألأ
وتباشر الأرض كلها عملها
وتفرح الماشية بمروجها
وتخضر الأشجار والأعشاب
وترفرف الطيور خارجة من أوكارها
تسبح أجنحتها لك
وتقفز الحملان على أقدامها
والطيور وكل ما يرفرف
تعيش لأنك تشرق من أجلها
وتبحر السفن جنوباً وشمالاً
ويفتح كل طريق لأنك تضىء
وتقفز أسماك النهر أمامك
لأن أشعتك تنفذ إلى أعماق البحر

إنك تهيىء الثمرة فى بطون النساء
وتحفظ الابن فى بطن أمه
وتسكن من روعة فلا يبكى
أنت يا من ترعى الجنين فى الرحم
إنك تهب نسيم الحياة لتُحْيى به جميع المخلوقات
فإذا خرج من الرحم .. يوم ولادته
فإنك تفتح فمه
وتدبر ما يحتاج إليه
وإذا صأصأ الفرخ فى بيضته
فإنك تعطيه الهواء داخل (بيضته) لتبقيه حيا
تمده بالقوة حتى يثقب بيضته
ثم يخرج من البيضة يصوصو
ويسعى على قدميه إذا خرج منها
ما أكثر ما خلقت .. !

* * *

لقد خلقت الأرض بحسب ما تهوى أنت وحدك
مع الإنسان كبيره وصغيره
وكل ما يسعى على قدميه على الأرض
وكل ما يحلق بجناحيه فى السماء

وبلاد سوريا والنوبة ومصر
وأقمت كل إنسان فى مكانه
دبرت لهم ما يحتاجون إليه
لكلٌ طعامه وأيام حياته المقدرة
وقد تفرقت ألسنتهم باختلاف لغاتهم
وكذلك أشكالهم
وألوان أجسادهم

• • •

أجل لقد ميزت الشعوب
وخلقت النيل فى العالم السفلى
ودفعت به (إلى أعلى) حسب مشيئتك
لتُحيِىَ به البشر يا سيد الجميع ..
وسائر البلاد البعيدة . لقد عملت على أن تحيا هى أيضا

• • •

فجعلت نيلاً فى السماء يهبط إليهم
تتدافع أمواجه على الجبال كالبحر
ويسقى حقولهم بما يحتاج إليه
ما أعظم تدبيراتك يا سيد الأبدية
فقد وهبت نيل السماء لشعوب الجبال !

ولما يسعى بأقدامه من حيوان سائر شعوب الجبال
أما النيل الذى يخرج من العالم السفلى
(فقد منحته لمصر . . .)

* * *

وخلقت الفصول لتنشئ مخلوقاتك من (جديد)
الشتاء لترطيب (أبدانهم) والحرارة ليتذوقوك
لقد خلقت السماء البعيدة لتشرق فيها
ولترى كل ما خلقته أنت وحدك
مشرقاً فى صورتك كشمس حية
ساطعاً متلألئاً رائحاً وغادياً
لقد خلقت منك بمفردك ملايين الأشكال
مدناً وقرى وأودية وطرقاً وأنهاراً
وكل العيون تبصرك أمامها
إذا صرت شمس النهار . .
إنك فى قلبى
وليس هناك من يعرفك غير ابنك أخناتون
فأنت الذى ثقفته بتدبيراتك وقوتك !
والأرض فى قبضة يدك كما أنك خلقت الناس
فإذا أشرقت عاشوا وإذا غربت ماتوا

..

إنك أنت نفسك الحياة ولا يحيا الناس إلا بك
وسائر العين ترى جمالك حتى تغرب
فإذا غربت فى الغرب تركت الأعمال كلها ..
ومنذ أن أنشأت الأرض حشرتهم (البشر)
لابنك الذى نشأ منك نفسك .
والزوجة الملكة المحبوبة
التى تحيا وتزدهر دائماً إلى الأبد » .

كما توجد بعض الأناشيد نشيد بحمد الآلهة ، هى على نصب الأسرة التاسعة عشرة ، وفيما يلى نماذج منها :

« إنى أنشئ له أنشودة باسمة
وأحمده حمداً يعلو كالسماء وينبسط كالأرض
وأشيد بذكر قوته إلى كل راحل إلى الجنوب وإلى الشمال
لتحموا أنفسكم منه
ولتحدثوا بذلك أبناءكم وبناتكم
والكبير والصغير

. . .

واذكروا ذلك للأجيال
التى لم تنشأ بعد
واذكروا ذلك للأسماك فى الماء

والطيور فى السماء
واذكروا ذلك لمن يعرف
ولمن لا يعرف
لتحموا أنفسكم منه

* * *

يا أمون أنت سيد الصامتين
الذى يأتى على صوت الفقير
عندما ناديتك فى محنتى
جئت لتخلصنى



هارب وآلة صغيرة ذات أربعة أوتار (من طيبة)

ولتعطى المتواضع نسيم الحياة !
ولتخلصنى أنا الطريح فى أربطتى

* * *

يا أمون رع يا سيد طيبة أنت أنت
الذى تخلص من فى العالم السفلى
إذا ناداك إنسان
فإنك أنت الذى تحضر من بعيد » .

أناشيد للملك والملكة

وما ذكرناه من الأناشيد للإله يتفق أيضاً فى جوهره مع الأناشيد للملك والملكة ، ومنها ما يقوله الإله أمون – رع فى أغنية حظيت بإعجاب كبير فى مصر للفاتح العظيم تحوتمس الثالث ، تقول كلماتها :

« جئت لأجعلك تفنى عظماء أعدائك
إنى أطرحهم تحت قدميك اللتين تطاردان شعوبهم
وأجعلهم يرون فى جلالتك رب النور
إنك تتلألأ من فوقهم كصورتى

* * *

جئت لأجعلك تفنى من فى آسيا
إنك تأسر رؤساء الآسيويين
وأجعلهم يرون جلالتك وقد تحليت بهائك

* * *

إنك تقبض على سلاحك وتحارب فوق مركبتك » .

كما كانت هذه الأغنية نفسها تنشد لسيتى الأول ، وذلك بعد عهد تحوتمس الثالث بقرن ونصف القرن .

صياغة أغانى قدماء المصريين

وإذ نختتم هذه الدراسة عن موسيقى وأغانى قدماء المصريين يجدر بنا أن نشير إلى صيغة هذه الأغانى ، أو بمعنى آخر الأبيات التى كانت تنهض عليها هذه الأغنيات ، والظاهر لنا من هذه الأغنيات أن أبسط عناصر صياغتها هو البيت الذى يتكون غالباً من شطرين ، يطابق كل منهما الآخر ، لا من حيث عدد المقاطع ، وإنما من حيث النبرات ، ويحتويان عادة على نبرتين إلى أربع ، ومن أبسط الأمثلة على ذلك ، الأغنية التى على لسان الميت فى الأسرة الثامنة عشرة عند وصوله أبيدوس لزيارة أزوريى :

حييت من أجلى أيها الإله الجليل !
سـيـد نـاور العظيم فى أبيدوس
إنى جئت إليك يا سيدى فى سلام
فـلـتـعـف عنى فأنت صاحب العفو
اسمع نـداءى واعـمـل مـا أقول
فـإلى واحـد من ممجـديك !

فكل شطر هنا يحتوى على نبرتين ، كما أن الشطرين يؤلفان معاً فى

الغالب وحدة قائمة بذاتها من حيث المعنى ، وكثيراً ما يكرر الشطر الآخر بعبارة مختلفة بعض الشيء عن معنى الشطر الأول .

وهذه الصيغة تعرف بطريقة التساوى فى الأجزاء المتقابلة المعروفة فى الشعر العبرى .

الأغانى الوطنية

غير أن هذا لا يتساوى دائماً فى عدد نبرات الشطرات ، إذ تسود ذلك حرية كبيرة . ويظهر ذلك فى أغنية النصر (من عهد الدولة القديمة) ، أو أغنية للنصر أخرى فى عهد الملك منفتاح ، وهذا نموذج منها وقد وصف فيها الملك بأنه :

« السنور القوى	الذى يقتل الأعداء
الجميل فى ميدان القتال	وضربته كالشمس
التى تهزم الغمام	الذى يهدد مصر
الذى يجعل تامير ترى	أشعة الشمس
الذى يطوى الجبل	من على رقبة الشعب
الذى يمنح الناس الهواء	الذين كانوا فى الأسر
الذى ينتقم لحكا وبتاح	من أعدائه »

وإلى هنا يبدو أن كل شطر يحوى نبرتين ، ولكن مما يلى يظهر بوضوح أن هذه القاعدة لا تستقيم دائماً ، بل الغالب فيها أن الشطر الأول يحوى ثلاث نبرات فى حين يشمل الآخر نبرتين ، كما هو واضح فى هذه الأنشودة الوطنية .

« هذا الذى يفتح أبواب الأسوار — التى أحكم رتاجها
والذى يدع معابده — تستقبل قرابينها
وهو الذى يقوى القلوب — للآلاف وآلاف الآلاف
فتدب الحياة ثانية — فيمن ينظر إليه
هو الذى يقوض أركان أرض العدو — ما دام هو حيا
وهو الذى يسبب الرعب الأبدى — فى قلوب المشواش
ويصيد الأعداء — الذين وطئوا أرض مصر »

وكلما أمعنا النظر فى الأنشودة وتتبعناها إلى نهايتها قلّ حبك هذا القياس فى الوزن .

وهذه أنشودة النصر من عهد الدولة القديمة ، تظهر فكرة عن أبسط أنواع التقسيم إلى فقرات ! ففيها يتساوى الجزءان الأول والثالث ، ثم الثانى والرابع وهكذا . وقد أنشدت هذه الأغنية عند عودة الجيش منتصراً إلى مصر :

هذا الجيش عاد إلى وطنه موفقا — فقد مزق بلاد سكان الرمال !
هذا الجيش عاد إلى وطنه موفقاً — فقد خرب بلاد سكان الرمال !
هذا الجيش عاد إلى وطنه موفقاً — فقد دمر حصون الأعداء !
هذا الجيش عاد إلى وطنه موفقاً — فقد ألقى النار بين سائر جنوده !
هذا الجيش عاد إلى وطنه موفقاً — فقد أحضر جنوداً كثيرة من هناك أسرى ! »

وإلى جانب هذا الوزن الشعرى نجد فى الشعر المصرى محسنات فنية أخرى ترتفع بلغة الشعر عن لغة الكلام ، ومن المستحب فى هذا المجال الجناس اللفظى ، ونضرب لذلك مثلاً الشعر الآتى :

« أبو مرو مح أم موماوت
تابعج أم مر وتف » .

وترجمة هذا الشعر هى :

« حين تمتلئ البحيرات من الماء الجديد
وتفيض الأرض بجبه » .

ويلاحظ فى الشعر السالف الذكر أن من الكلمات العشر المذكورة — تبدأ سبع منها بحرف الميم ، والنوع نفسه من الجناس نجده فى تلك المقطوعة التى قدمها كاتب شاعر للملكة حتشبسوت :

« سخبر — إن — ف أر أوتس خعو — أف
خبرت خبرو أم خبر — رع
خعت خعوم إخوتى » .

وترجمتها :

« خلقها ليرفع من بهائه
تخلق الكائنات مثل خبر — رع
وتزهو تيجانها مثل إله الشمس » .

« هذا الذى يفتح أبواب الأسوار التى أحكم رتاجها
والذى يدع معابده تستقبل قرابينها
وهو الذى يقوى القلوب للآلاف وآلاف الآلاف
فتدب الحياة ثانية فيمن ينظر إليه
هو الذى يقوض أركان أرض العدو ما دام هو حيا
وهو الذى يسبب الرعب الأبدى فى قلوب المشواش
ويبيد الأعداء الذين وطئوا أرض مصر »

وكلما أمعنا النظر فى الأنشودة وتتبعناها إلى نهايتها قلّ حبك هذا القياس فى الوزن .

وهذه أنشودة النصر من عهد الدولة القديمة ، تظهر فكرة عن أبسط أنواع التقسيم إلى فقرات ! ففيها يتساوى الجزءان الأول والثالث ، ثم الثانى والرابع وهكذا . وقد أنشدت هذه الأغنية عند عودة الجيش منتصراً إلى مصر :

هذا الجيش عاد إلى وطنه موفقا فقد مزق بلاد سكان الرمال !
هذا الجيش عاد إلى وطنه موفقاً فقد خرب بلاد سكان الرمال !
هذا الجيش عاد إلى وطنه موفقاً فقد دمر حصون الأعداء !
هذا الجيش عاد إلى وطنه موفقاً فقد ألق النار بين سائر جنوده !
هذا الجيش عاد إلى وطنه موفقاً فقد أحضر جنوداً كثيرة من هناك أسرى !

وإلى جانب هذا الوزن الشعرى نجد فى الشعر المصرى محسنات فنية أخرى ترتفع بلغة الشعر عن لغة الكلام ، ومن المستحب فى هذا المجال الجناس اللفظى ، ونضرب لذلك مثلاً الشعر الآتى :

« أبو مرو مح أم موماوت
تابعج أم مر وتف » .

وترجمة هذا الشعر هى :

« حين تمتلئ البحيرات من الماء الجديد
وتفيض الأرض بحبه » .

ويلاحظ فى الشعر السالف الذكر أن من الكلمات العشر المذكورة — تبدأ سبع منها بحرف الميم ، والنوع نفسه من الجناس نجده فى تلك المقطوعة التى قدمها كاتب شاعر للملكة حتشبسوت :

« سخبر — إن — ف أر أوتس خمو — أف
خبرت خبرو أم خبر — رع
خعت خعوم إخوتى » .

وترجمتها :

« خلقها ليرفع من بهائه
تخلق الكائنات مثل خبر — رع
وتزهو تيجانها مثل إله الشمس » .

ويلاحظ هنا تكرار حرف الخاء فى أول الكلمات مع التلاعب بلفظى (خبر) و (خع) ويقول شاعر آخر :

« دى – إن ئى سن أم ساحاك

عاوى حم ئى حر حوت سحر زوت » .

وترجمتها :

« أجلسها خانك لحمايتك

وذراعا جلالتى ترتفعان ليطردا الشر » .

ويلاحظ هنا تكرار حرف الحاء .

رقم الإيداع	١٩٨٣/٣١٧٣
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧–٠٢–٠٥٠٢–٨

٤٨/٧٨/ق

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)